الفصل الاول

التباين المكاني و ألزماني على سطح الارض :
الأسباب و النتائج

1 – المقدمة :

لقد خلق الباري عز وجل كل شـــيء بقدر ليوفر ظروف الحياة التي نعيشـــها على هذا الكوكب الصغير، لقد أوجد مسببات الحياة ، وشروط اختلاف الأقوام و الشعوب عن بعضها البعض ، و ظروف الاختبار الدنيوي في النعيم و الشدة . ولقد منح الرب الإنسان عقلا ليستثمر مكنونات الأرض و يتكيف مع التبدلات التي تحصل في البيئة المحيطة به ، و ليسيطر على غرائزه و رغباته و يتدبر أمور دنياه و

آخرته . لذا ، لا تتوزع الظواهر الطبيعية والبشرية بشكل متوازن على سطح البسيطة ، وهذه من روائع الخلق و قدرة الخالق سبحانه و تعالى و بديع صنعه . إنها سنة الحياة في الأرض ومن أسرارها.

2 – عوامل التباين :

لنتصور أن الأرض مسطحة (كما اعتقدها القدماء) ، أو إنها كرة ملساء ككرة البليارد ، أو أن محورها عمودي على مدارها حول الشمس ، أو أن مسارها هذا دائري الشكل وليس اهليليجي ، أو إنها لا تدور حول نفسها ، فكيف ستكون طبيعة الحياة على سطحها ؟ هذا ليس خيال علمي ، فهكذا قد فكر الفلاسفة القدماء ، وعلى أساس هذا المنطق استدلوا على شكل الأرض و طبيعة حركاتها قبل أن ينزل الإنسان على سطح القمر وقبل أن يرسل صورا فضائية للأرض . ولو لم تكن هناك جبال على سطح الأرض ، هل يمكن ان توجد بحار و محيطات ؟ أو أن توجد أرض يابسة ؟ وعلى افتراض انها غير

موجودة ، كيف ستتوازن الأرض و تنتظم حركاتها ؟ انه ليس عبث فكري ، بل استقراء كنه الحياة و سرها على سطح ألأرض .

فبسبب ميلان محور الارض و حركتيها اليومية والسنوية ، وبسبب كروية شكلها تبرر التباين الزماني (الليل والنهار ، الفصول الأربع) ، والتباين المكاني العام بين مختلف المواقع على سطح الكرة الأرضية (بدء من خط الاستواء حتى القطبين). وبسبب توزيع اليابس و الماء ، والاختلاف بين الارتفاعات عن مستوى سطح البحر تبرر التباين على المستوى الدقيق (التفصيلي ، المحلي) في الظروف الطبيعية (طقس ، تربة ، نبات) وانعكاساتها على الإنسان واختلاف أجناسه و حضاراته و طرز معيشته . فالتباين بين عناصر الطبيعة صاحبه تباين حضاري صنعه الإنسان جراء تكيفه مع البيئة المحلية واستثماره لها.

ومنذ القديم عد الإنسان ابن الطبيعة ومن نتاجها (الحتم الجغرافي) ، وحديثا نظر إليه كأبن غير بار بها نتيجة الأضرار التي سببها للبيئة و استثماره غير العقلاني لمواردها بسبب انسياقه وراء مصالح آنية وغرائز حب التملك و الهيمنة ، وغيرها . وبهدف توفير أجواء خاصة به اندفع الإنسان في إيجاد بيئات صنعها بنفسه (المأوى ، المحلة ، المستقرة البشرية ، وغيرها) ، وقد تباينت البيئات التي صنعها الإنسان نتيجة عوامل عديدة ، الإنسان أساسها .

3 – مستويات التباين و مقاييسه :

فالتباين المكاني حقيقة على جميع المستويات و الأصعدة ، على مستوى الكون (بيئة المريخ تختلف عن بيئة المشتري وعن بيئة الأرض) ، وعلى مستوى الكرة الأرضية (البيئة الاستوائية عن القطبية) و (البيئة الساحلية عن الداخلية) و (بيئة الأرض المنبسطة عن الجبلية) و (بيئة الريف عن الحضر) و

(بيئة مركز المدينة عن أطرافها) و (بيئة الشارع الرئيسي عن الشارع الفرعي) و (الأركان عن وسط الشارع نفسه) و (بين غرف المنزل الواحد) وحتى في الغرفة نفسها (قرب الشباك و الركن المنزوي) ، و هكذا . فالتباين مستمر من أكبر المستويات scales إلى أصغرها .

وليس التباين نوعي فقط ، بل و كمي أيضا ، فالكواكب متباينة في أحجامها ، في عدد توابعها ، وفي الوقت الذي تستغرقه في كل دورة من دوراتها . وعلى سطح الأرض تختلف النباتات الطبيعية (الناتج الحتمي عن تكامل عوامل طبيعية) ليس من حيث النوع فقط بل ومن حيث الكم أيضا (العدد و الكثافة) . وتتباين المستقرات البشرية عن بعضها بالحجم السكاني إضافة إلى الاختلاف في الوظائف التي تؤديها ، وتتباين الوحدات الإنتاجية في حجمها (على اختلاف معايير قياس الحجم) ، كذلك حال الوحدات السكنية التي تتباين عمرانيا في حجمها (مساحة و بناء) و تتباين في ساكنيها ، وهكذا .

فالتباين في عناصر البيئة الطبيعية يقابله تباين في عناصر البيئة التي صنعها الإنسان ، وكلاهما يكمل بعض (كوجهي عملة واحدة) ليكونا التباين المكاني لعناصر البيئة التي يعيش الإنسان فيها و ينشط .

4 – تباين أم تكامل ؟

التباين مبرر لذاته ، وهو في الوقت نفسه مبرر تكامل العناصر المتباينة ، فالحياة تكامل . الرجل والمرأة يكملان بعض ليكونا الزوج والزوجة ، وبالأبناء (الجيل الجديد – تباين زمني) تكتمل الأسرة و تمتد على مساحة مكانية و زمنية أكبر ، وتتوفر ظروف البقاء و التطور . والنهار يكمله الليل ، و الصيف يكمله الشتاء ، و البحر يكمله اليابس ، والجبل يكمله الوادي ، وهكذا.

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، تتكون الوحدة السكنية من عدد من الغرف ، والتباين داخلها واضح في مساحة الغرف و شكلها و الوظيفة التي تؤديها وكثافة استخدامها ، و مواقعها بالنسبة إلى الشارع و \

أو الحديقة ، وتكمل بعضها لتوفر سكنا و مستقرا للإنسان تخدم شتى أغراضه و تلبي مختلف حاجاته . وقد تتباين وظائف غرف الوحدة السكنية مع الزمن نتيجة التبدل في حاجات الساكنين ، وقد يصل الأمر إلى تبدل في مساحة وحجم الوحدة السكنية ، أو تغيرها كليا ، وفي مكان آخر في كثير من الأحيان . فالثبات على حالة واحدة ليس من مؤشرات الحياة ، فكل شيء يتبدل و يتطور باتجاه معين لا يمكن ملاحظته إلا من خلال المراقبة لفترات متباعدة نسبيا طبقا لعمره الزمني . فسهول اليوم كانت جبال في الماضي ، (أو مغطاة بالمياه)، ومن هو في أرذل العمر اليوم كان شابا يافعا قبل عقدين او ثلاث ، وصبي اليوم هو رجل الغد، وهكذا . فالتباين ألزماني للمكان (أو الشيء) نفسه حقيقة لا مفر من قبولها والتعامل معها على هذا الأساس . و بملاحظة التباين

الزمني يمكن تأشير المرحلة التي وصل إليها (الشيء) من حيث دورة حياته ، سواء أكان إنسان ، نبات، حيوان ، نهر ، جبل ، مصنع ، مبنى ، وغيرها .

وتتباين الوحدات السكنية عن بعضها في العديد من المعايير ، (تاريخ البناء ، مساحته ، عدد الغرف و المرافق الخدمية، التنظيم الداخلي ، مادة البناء ، الموقع ، وغيرها) . كذلك يتباين ساكنوها من حيث عدد الأفراد ، طبيعة الصلة بينهم ، التركيب العمري و الجنسي ، المستوى التعليمي ، المستوى الاقتصادي، إلى آخره . والوحدات السكنية ، بعد تصنيفها إلى فئات على أساس المعايير المشار إليها آنفا ، تمثل مرآة تعكس مكانيا التباين في التركيب الاجتماعي – الاقتصادي للسكان ، تترجمه من التنظيم الهرمي العمودي للمجتمع إلى امتداد مساحي على سطح الأرض . فلكل موقع في المدينة قيمتان تقاسان بمحورين عمودي (اقتصادي اجتماعي) ، و أفقي (مكاني قياسا بمركز السوق) ، ونقطة الموقع هذه رغم إنها ثابتة مكانيا

إلا أنها متحركة زمنيا مع كل تبدل يحصل في المحورين الأفقي و العمودي من حيث الطول و القياسات. فالتباين معقد تعقيد الحياة والمستوى الحضاري الذي وصله ساكني منطقة الدراسة . ولا ترتبط حياة الإنسان بالسكن لوحده ، فهناك أماكن للعمل توفيرا لمصادر الرزق و المعيشة: تجارية ، صناعية ، زراعية ، خدمية، وكل منها يتباين ذاتيا في العديد من المعايير ، و تتباين في توزيعها المكاني طبقا لقدرتها على المنافسة للحصول على موقع يسهل الوصول إليه . وجميعها تكمل بعض ، فلا زراعة بلا تجارة ، ولا صناعة ، ولا خدمات تعليمية أو صحية أو غيرها ، وكل عنصر من عناصر المعيشة هذه لا تتوفر له مقومات الديمومة دون وجود خدمات النقل (عصب الحياة وشريانها) ، فتباينها فرض تكاملها ، ولا يحول هذا دون تنافسها، بل يعززه و يزيده ضرورة وفي الوقت نفسه ضراوة . و التباين مزدوج ، الشيء مع نفسه و أقرانه زمنيا ، ومع العناصر الأخرى مكانيا . وكلا التباينين في حركة مستمرة نتيجة التنافس و التطور الحضاري ، ولا

يحدث الخلل إلا عندما يستغل الإنسان نفوذه و سلطته لصالح فئة دون غيرها . فالتباين و التكامل و التنافس أركان تستند عليها الحياة في حركتها الدؤبة.

5 – منهجية دراسة التباين المكاني :

لا تدرس التباينات المكانية منفصلة عن بعضها ، فمثل هذه الدراسات تكون قليلة القيمة و الفائدة . عوضا عن ذلك يتم التعامل معها و تحليل تفاعلها مع بعض باعتماد المنهج النظامي System Approach . أن دراسة التباين المكاني لأي عنصر من عناصر البيئة يعني وصف توزيعه ، تحليل النمط الذي يشكله ، تحليل شبكة العلاقات بين النمط (التوزيع) و مجموعة من العوامل Factors ، (المتغيرات Variables ، العمليات Processes) التي يعتقد بان لها دور في تشكيله و التأثير عليه، اشتقاق العموميات عنه laws , Generalization، نمذجته Modeling ، وبالتالي التنبؤ Prediction بما

سيكون عليه النمط في المستقبل القريب ، عند التدخل للحد من أو تعزيز أثر عامل معين على وجه الخصوص . و رغم حداثة هذا المنهج الا انه كمنظور علمي فهو قديم ، فتقسيم العالم إلى أقاليم نابع عن هذا المنظور، كذلك عند تسمية الجغرافيا بعلم البيئة البشرية Human Ecology . فالجغرافيا هي العلم الذي يدرس بمنهج نظامي شمولي التنظيم المكاني لعناصر البيئة التي يعيش الإنسان فيها و ينشط . ولما كانت عناصر البيئة (الطبيعية والبشرية) متباينة مكانيا و زمنيا ، فالجغرافيا معنية بالضرورة بالتباين المكاني و الزمني للظواهر التي تحدث على سطح الأرض .

في ضـــوء الفهم أعلاه للتباين المكاني و ألزماني وعلاقتهما بحياة الإنســـان و مســـتقبله ، وعلاقة الجغرافيا كعلم في دراسته، يمكن القول بان الجغرافيا هي العلم الذي يدرس التنظيم المكاني لعناصر البيئة الطبيعية والبشرية على سطح الأرض والعلاقة بينها . وأن الفصل بين العناصر الطبيعية عن تلك التي

صنعها الإنسان لأغراض دراسية لا تهمل تفاعلاتها المتداخلة المتشابكة بل تركز عليها . وان التخصص في الجانب الطبيعي لا يعني إهمال للأهداف الإنسانية لأنها الأساس في وجود العلوم بصورة عامة ، الجغرافيا على وجه الخصوص .

6 – جغرافية المشكلات الاجتماعية :

بفصل مكان العمل عن السكن اتسعت المدن و ازدادت تعقيدا تركيبتها الوظيفية و انعكاسها على استعمالات الأرض فيها، وكذلك تركيبة سكانها من مختلف المعطيات الديموغرافية و الاقتصادية والاجتماعية ، وتفاقمت مشاكلها المختلفة و تباين حدوثها مكانيا و زمنيا . وقد اهتم الباحثون بحركة السكان بين مختلف استعمالات الأرض الحضرية (التفاعل) ، ودرسوا العمليات التي تؤطر أنماط الحركة

و تحددها . كما شخصوا أثر استيعاب الإنسان و إدراكه للمجال على النمط المكاني لسلوكه . بعبارة أخرى ، درسوا التباين و التفاعل بمختلف المستويات .

وعند دراسة المشكلات الاجتماعية المختلفة و تباين تكرار حدوثها مكانيا و زمنيا ضمن الرقعة الحضرية فقد أعتمد تفسيرها على التباين المكاني لعدد من المتغيرات العمرانية ، الديموغرافية ، الاقتصادية، والاجتماعية و تفاعلها مع بعض لتمثل التباينات البيئية . وقد أثمر تباين البيئات ثقافات فرعية (جزر حضارية) ضمن الحضارة الأوسع في المدينة ، ولهذه الثقافات الفرعية دور في تبرير سلوكية أفراد المجموعة و القيم التي يؤمنوا بها ، وبالمحصلة النهائية ، مواقفهم تجاه الآخرين في المجاميع الأخرى و الدولة .

ولما كانت التباينات المكانية حقيقة لا يمكن إغفالها ، فقد أخذت بالحسبان عند رسم السياسات العلاجية و الوقائية للأمراض و المشكلات الاجتماعية . لقد اعتمدت التباينات المكانية لرسم السياسات Area based policies في الدول المتقدمة ، فمتى نرى هذا في أقطار وطننا العربي ؟ أليس من واجب الجغرافيين إبراز هذه التباينات من خلال بحوث ميدانية ذات منحى تطبيقي ؟ و التركيز على المشكلات التي تتداخل بها العوامل البشرية و الطبيعية ؟ و التفسير المكاني للتباين في تكرار حدوث الظاهرة أو المشكلة قيد الدرس ؟ لعل من أسباب تخلف الجغرافيا في بلداننا تخوف الجغرافيين في الكتابة عن موضوعات تتعلق بالمجتمع و حياته اليومية والمشاكل التي يواجهها ، و تجنب التحليل التقويمي لسياسة الدولة الداخلية ، أو\ و التركيز على أحد جوانب الجغرافيا دون النظرة الشمولية (طبيعية وبشرية) ، السمة ألأساسية للجغرافيا التي تميزها عن غيرها من العلوم التي ترتبط و تشترك معها في الموضوع و

التقنيات . ولا تتغير نظرة الآخرين (من مسـئولين و عامة الناس) إلى الجغرافيا و الجغرافيين إلا بعد أن يغير الجغرافيون من أنفسهم و يخدموا المجتمع بجرأة و صراحة ، و يتمسكوا بجوهر الجغرافيا دون اللهاث وراء ما أضـيف إليها من تقنيات و شـكليات . فالإضـافات يجب أن تعزز مكانة الجغرافيا لا أن تمسـخ شخصيتها و تلغي دورها الريادي في خدمة المجتمع .